الجزء الثاني

الفصل الرابع

استعادة أحداث ١٨٥٧م ـــ ١٩٤٦م

نحاول في هذا الفصل تصوير بعض الخلفيات التاريخية لحركة قيام باكستان. وأوّل موضوع بارز هو تمرّد المُجنَّدين عام ١٨٥٧م الذي كان كارثةً مدمّرة بالنسبة للجالية المسلمة في الهند. والواقع أن حظّهم كان في تدهور مستمر منذ تسعين سنة إلا أنّهم لم يعُوا تماماً هذه الحقيقة. وفجأةً وجدوا أنفسهم غارقين في ذلٍّ وإفقار لا يمكن تصوُّرهما. فبالنسبة للبريطانيين كان المسلمون يتعاملون معهم على أساس أنهم ـ أي البريطانيين ـ يُمثّلون شركة تجارية. صحيح أنها كانت شركة غريبة وقويّة في آن واحد امْتلكت مساحات واسعة من الأرض بما فيها مدينة (دِلْهي) نفسها منذ عام ١٨٠٣م. إلا أن هذا الترتيب تركهم يحتفظون ببعض الاعتزاز الإمبراطوري علاوة على العظمة الماضية. وفي أشهر دمويّةٍ... قليلة انمحى كل ذلك ولم يقترن المسلمون فقط، بأسلوب مذل، بمحكوميهم السابقين من الهندوس ـ كمواطنين في إمبراطورية جديدة غير مسلمة، بل كانُوا، في أعين الحُكّام البريطانيّين، المسئولين عن الاضطرابات الفظيعة الأخيرة، وبالتالي كان عليهم أن يتحمّلُوا وَطْأةَ الأعمال الانتقامية ـ البريطانية ـ .

ونعلم الآن، من مجموعة الكتب الجيّدة التي صدرت عن هذا التمرد عام ١٩٥٧ في ذكراها المئة، أن توزيع اللوم على المسلمين كان ظالماً وغير متوازن ولكن البريطانيين كانوا في ذلك الوقت مُقْتَنعين أنّهم على حقٍّ في لوم المسلمين على التمرّد. لذلك كان ظلمهم للمسلمين قاسياً وشديداً. لقد كان رُعْبُ البريطانيين عميقاً إذْ كانوا يعون جيّداً أن المسلمين كانوا، بالأمس القريب، حُكّامَ هذا البلد ـ الهند ـ وبسبب عوامل لا علاقة لها بالتمرّد، لم يكن المسلمون مُسْتعدّين لاحتمال الأعمال الانتقامية البريطانية وردود فِعْلِها على الصعيد الاقتصادي. ولقد وَطَّدَ النفوذ البريطاني نَفْسه في الهند أصلاً حول (مَدْراسْ) و(بُومْبَايْ) و(كَلْكُوتَّا) وهي المناطق ذات الأغلبية الهندوسية لذا كان الهنادكة هم أوّل من احْتَكَّ بالأجانب الأقوياء بصورةٍ واسعة وتعوّدوا على أساليبهم وهذا ما أعطاهم سَبْقاً

اقتصاديا؛ وفي أواخر الثمانينات من القرن الثامن عشر كان لسياسات (كُورْنُوَالّي) البريطاني تأثيراتها الجانبيّة التي قوّتْ سَبْقَ الهنادكة. وفي عام ١٨٣٥ أدّتْ الدقيقة الأخيرة لِـ (ماكولي) إلى إبدال لغة البلاط في الحكم المغولي، وهي الفارسية بالإنكليزية كَلُغةٍ للإدارة في مستعمرات شركة الهند الشرقية.ولم يكن للمسلمين بخاصة داخل الهند فُرَصٌ كالهندوس لِتَعَلُّم اللغة الإنكليزيّة وهذا ما زاد من صعوبات الجالية المسلمة في استلام وظائف حكومية في الأوضاع المتغيرة لعام ١٨٥٨. وكان هناك أيضاً مسائل أخرى:

فقدان المسلمين لمساحات كبيرة من الأراضي بسبب التدابير الجديدة التي فرضت وجود وثائق تُثْبِتُ ملكيّة الأرض. ثم عدم فتْح المجال... للعمل في الجيش لأنّ المسلمين (غير موثوقين) عند البريطانيين. ثم ضياع السمْعة والهيبة.. لدى المسلمين، وهذه أمور هامّة في أي مكان من العالم إلا أنها أكثر أهميّة بخاصة في آسيا. ويبدو جليًّا، إذا نظرنا إلى الخلفيات، أن أحداث ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ أخَّرَتْ الجالية المسلمة خَمْسَ عشرة سنة على الأقل في سَعْيِها الأخير المحفوف بالمخاطر، نحو إقامة وطن مسلم مستقل.

وأوّل تأثير للكارثة كان دَفْعَ المسلمين المُتَجَهِّمين نحو ماضيهم. وفي سبيل السلوى اتّجه زعاؤهم نحو التدين التقيّ ونحو الأدب الأُرْدِيّ رافضين أغلب الأحيان التيارات «التغريبية» ومُسْتَحْدثاتِها، كذلك رفضوا التعاون مع النظام الجديد «المُشْرِك» ومع الهندوس الذين تكاثروا في مراكز الإدارات الحكومية وحَلُّوا محل المسلمين ـ الذي كانوا حاكمين في العهد المغولي ـ وزاد العطف على الحركات المسلمة «الرجعية» ! مثل تلك التي كانت تُسمّى بالوهابية ـ والتي أغاظت شركة الهند الشرقية ـ البريطانية ـ منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر. واستمر هذا المزاج الإنطوائي في السِتّينات. أمّا تغيّر الوضع حين كان التغيير لايزال مُمْكناً ومُفيداً فَسَبَبُهُ رجلان: (وِلْيَمْ هَنْتِرْ) والسيد (أحمد خان) ودور الأخير كان هو الأكبر، بالتأكيد، إلا أن الباكستانيين يتجاهلون دور الأوّل وكذلك دور إنكليزي آخر بعد عقدٍ من الزمان بعد ذلك وهو (وِلْفْرِد سْكُوِّنْ بْلاَنْتْ). والمؤرخون الهنادكة يعترفون بدون تردد بالرجال البريطانيين أمثال (دُوفِّيرِنْ) و(هُيُوم) و(ودِّرْبِرْنْ) و(رُوبِرْتْ نايْتْ) على أنهم بعضُ مؤَسّسي حزب المؤتمر سنة ١٨٨٥م والذي قاد أخيراً إلى الاستقلال. والسيخ يُقدّرون أهميّة (كانِنْغامْ) و(ماكُولِفْ) في عملية بَعْثِهم. ولكن لم يَحْظَ دور (هَنْتِرْ) ولا (بلانْتْ) من قِبَلِ المسلمين بأي اعتبار. والأخير المتعاطف مع المسلمين

وصل وهو في (كَلْكُتَّا) إلى درجة تحديد مطالب باكستان المستَقْبليّة بوضوح عام ١٨٨٣م. وقال يجب أن يكون في شبه القارة حكومتان مستقِلّتان مسلمة في الشمال وهندوسيّة في الجنوب ويجب أن تُسَلَّمَ الإدارة المدنية والتشريع والأمور المالية لأهل البلاد؛ ولا يَبْقى في يد البريطانيين إلا السلطة العَسْكَرية. والواقع أن ما قاله السيد جناح نفسه في إشارته إلى استحالة وجود حكومةٍ واحدةٍ في شبه القارة، ذكره مصدر بريطاني مُهم قبل ذلك بمدّة طويلة في عام ١٨٥٨ وهو (جُونْ رايْتْ).

صدر كتاب (هَنتِرْ) عام ١٨٧١م قبل أَرْبع سنوات من إنجاز السيد أحمد خان الواسع النفوذ وهو تأسيس الكليّة الإسلامية في عليغره[1]؛ والفَصْل الأخير الرائع عن «أخْطاء المحمّديين إبّان الحكم البريطاني» والمكتوب بَصِدْقٍ شديد أثار البريطانيين والمسلمين معاً بخاصّة وأن الكاتب كان يعمل، عند صدور كتابه، في السلك المدني. أمّا إنجازات السيد أحمد خان فكانت على جبهة أوْسع بكثير وكانت أكثر تحديداً وأطولَ زمنا منها، بالإضافة لجامعة (عَلِيغرَهْ)، نجاحه في كَسْب اعتراف بمبْدأ انتخابات مستقلة للمسلمين في المجلس البلدي في (رِيُّونْ) عام ١٨٨٢م، وبإبقاء المسلمين بعيداً عن التَوَرُّط في حزب المؤتمر وطلباته المتجددة عام ١٨٨٧ للإسراع بإدخال النَمط الغربي للمجالس النيابيّة. وكانت حجته في الحالتين واحدة: وهي أن المؤسسات التمثيلية ذات النمَط الغربي لا تُناسب الواقع الهنْدي، بخاصّة وأنّ الهندوس يمارسون التمييز الطبيقيّ.

«إن أسْلوب الانتخاب هذا، بكل بساطة ووضُوح، لا يمكن تبنّيه بصورة آمنة فالجالية الأكبر سَتُغَيِّبُ تماماً مصالح الجالية الأصغر».

وكان خطابه أثناء خلاف عام ١٨٨٧م يَضُمّ مقطعاً شهيراً غنيًّا بتنبؤات بصيرة. «لنفترض أن على كلّ الانكليز أن يغادروا الهند... فمن سيحكم بعد ذلك؟ هل من الممكن لشَعْبين: (المحمديّين والهندوس) أن يجلسا على نفْسِ العرش؟ ويَبْقَيا متساوين في السلطة؟ بالتأكيد: لا، والأمل في أن يبقيا مُتساوِيَيْنِ أمْرٌ لا يُعقَلُ تَصَوُّره».

وبقي نفوذ السيد أحمد خان قويًّا حتّى وفاته في عام ١٨٩٨م. وعندما دُفِن في (عَلِيغرَه)، حَسْب ما سَجّل عنه السِرْ (تيودورْ موريسون) كان يقال عنه: «إن رجالاً آخرين ألّفوا كتباً وأسَّسُوا كليَّاتٍ ولكن إيقاف تفسُّخ شعب بكامله، كالجدار المانِع، هو عمل الأنبياء».

---

(١) وأصبحت بعد ذلك جامعة.

وتشمخ الفترة التي مرّت ما بين ١٨٧١ و١٨٨٧ كقِمّةٍ في تطوّرِ الجالية المسلمة، ... فترة جرت فيها أحداث حاسمة ملموسة. وربّما يستطيع المؤرخ أنْ يُشير إلى ثلاثِ قمم كهذه قبل قيام باكستان عام ١٩٤٧، مَرّت ما بينها فترات من الميوعة والتردّد. والقمّة التالية تُغطّي فترة ١٩٠٥ إلى ١٩١٢م؛ وفي الفجوة ما بين القِمَّتين ـ من عام ١٨٨٧ إلى عام ١٩٠٥ كانت أهمّ الأحداث نتيجة للكتب التي صدرت وظهور حركة باكستان؛ ومن ابرز هذه الكتب كان كتاب أمير علي (روح الإسلام) وقد صدر عام ١٨٩١ وربّما كان أمْهَرَ إنجازٍ على الإطْلاق قام به المدافعون عن الإسلام؛ وكانت الغاية مِنْه «تَعْصِيريّة» مثل أعمال السيد أحمد خان كما أشرنا لذلك سابقاً في الفصل الأوّل من هذا الكتاب. ويجب ذِكْرُ كتابَيْنِ آخرين: كتاب عاطفي للشاعر (هالي): «مُسَدَّسْ» وقصّة (أَنَنْدَمَانْ) لِـ (بَنْكيمْ شَنْدْرَا تْشَاتِرْجِي) التي أثارت المسلمين لأنّها هجوم حاد عليهم. ولقد صدر الكتابان قبل عام ١٨٨٧م، ولكن تأثيرات الكُتّاب الذين يُثيرون أفْكاراً مبتكرة لا تظهر إلاّ بعد مُدّة، وكان لِكلا الكتابين تأثير فاعل خلال تلك الفترة. ومع كتاب (تْشَاتِرْجي) برزت بسرعةٍ حركة تمثّلت بـ (سْوَامي دايانَنْدا آرْيا سَمَاج) في شمال الهند، حركة عدوانية تدعو لإحياء الهندوسيّة ظهرت في حركة الشعب المتعصّبة لـ (تيلاَكْ) خلال التسعينات في منطقة (مَهْرَاتا)، والحركة الدعائية الناجحة المُقنَعة، للهندوسية خارج الهند التي قادها (سَوْآمي فيفنكانَنْدا) في برلمان الأدْيان في شيكاغو عام ١٨٩٣م.

وبدأت قِمّة الفترة ١٩٠٥ ـ ١٩١٢ بتقْسيم (كورْزُونْ) للبنغال، وانتهت بإلغاء «هاردينغ» لهذا التقسيم وكانت غاية (كورزون) إداريةً بصورةٍ مبدئيّة إذْ ازْدادَ سكان البنغال بصورةٍ كبيرة آنذاك بحيث لم يكن من السهل إدارتها بفاعليةٍ كوحدةٍ واحدة، ونتيجة لذلك أُهْمِلَتْ أطْرافها الشرقيّة والتي كانت ذات أغلبيّةٍ مسلمة. وهذا الاعتبار مُشابِه في الواقع للأمْرِ الذي أدّى إلى التقسيم الثاني عام ١٩٤٧م؛ لذلك رَحَّبَ المسلمون بما فَعَلَهُ (كَوْرْزُونْ) وفسَّره الهندوس بالمقابل على أنّه هجوم مُتعمَّد على مصالحهم وحصل تذمّر كبير ساندتْهُ أعمال إرهابيّة ضد المسؤولين البريطانيين واستمرّ هذا التوتّر طوال فترة استلام (مِنْتُو) كنائب للملك، كما دوّن هو نفسه بعد ذلك بكتابه: «قُلنا للمسلمين مرّات ومرّات أن التقسيم حقيقةٌ مَحْسومة، ولم يَبْقَ، تقريباً، أيّ موظّف مدني بريطاني لم يُعْلِنْ أنه سيكون من المُستَحيل على الحكومة البريطانية عكسَ هذا القرار».

لذا عندما أعلن عكس القرار عام ١٩١١م بَدَا الأمْرُ للكثيرين على أنّه استسلام ليس فقط للكلمات التي قيلَتْ أو دُوِّنَتْ، بل للقنابل والرصاص. وبِنَظرِ المسلمين بدأ أوَّلُ شَرْخٍ كبير واضح للبُنْيَةِ المعنويّة للنظام البريطاني... في الاتّساع.

ومع ذلك ففي فترة استلام (مِنْتُو) كنائب للملك في الهند تَحَسَّنَتْ أوضاع المسلمين في نواح أُخْرى: توسّعتْ الرابطة الإسلامية، وهي منافس محتمل لحِزب المؤتمر، عام ١٩٠٦م وفي نفس العام، بعد قبولِ تقسيم الناخبين في الانتخابات البلديّة، امْتَدَّ التقسيم إلى انتخابات المجالس التشريعية التي جاءت بها إصلاحات (مورلي ـ مِنتُو).

وبعد إلغاء تقسيم البَنْغال، مَرَّتْ أربع سنوات من المرارة والإبهام والإرْتباك أَعْقَبَتْها القِمّة الثالثة التي غطّت الفترة ١٩١٦ ـ ١٩٢٢ التي كانت فريدةً، فخلالها اقترب الهنادكةُ والمسلمون من بعضهم البَعْض بصورةٍ لم يكن لها مثيلٌ سابق أو لاحق. ومن التناقض البيّن أنْ كان لنهاية الحرب العالمية الأولى هذا التأثير في تقارُب المسلمين والهندوس بينما كان للحرب العالمية الثانية والسنتين اللتين تَلَتْها نتائج معاكسة تماماً أبْعَدَتْ الجاليتين عن بعضِهما البعض؛ والسبب هو عامل خارجيّ يبْدو للوهلة الأولى أنّه غير مُتّصل بالموضوع، وهو وضعُ تركيّا الخَطِر في الفترة التي تلتْ الحرب العالمية الأولى.

فلقد هاجمتها إيطاليا عام ١٩١١ وتَبِعَتْها دُوَلُ البلقان وبعدها أعْلَنَتْ بريطانيا وغيرها الحرب عليها، وكل هؤلاء كانوا دُوَلاً أوروبيّة مسيحيّة، وتركيّا ـ أو الإمبراطورية العثمانية ـ لم تكن فقط آسيويّة بل كانت قَلْبَ العالم المسلم ومركز الخلافة. وبريطانيا وحليفتها روسيا قَسَّمَتا إيران قبْل فترة، وهي دولة مسلمة، كذلك فَعَلَتا بأفغانستان؛ ومن جهة ثانية أظهرت الحرب الروسية اليابانية بشَكْلٍ مثير أن القوى الأوروبيّة المسيحيّة ليست بالضرورة غالبة عندما تحارب القوى الآسيويّة، وأنّ الأوروبيّين الآن يحاربون بَعْضهم البعض وهم مُشْتركون في قتال إخوتهم ممّا أوْحى بأفْكارٍ تبْعَثُ الفضول: فمَعَ أن الغربيين هم بالتأكيد أفضل من الهنود في صِناعة الآلات إلا أنّهم، على المستوى المعنوي، قد يكونون أقلّ تفوّقاً مِمّا كان يُظَنّ.

وأثّرَتْ هذه المشاعر المتداخلة التي أثارتْها هذه الأفكار، في الهندوس، والمسلمين على السواء؛ ومَكّنت عام ١٩١٦ الجناح المتحرِّر ـ الليبرالي ... غير الثيولوجي ـ في الرابطة الإسلامية والمتمثّل بمُحامٍ شاب صاعد من بُوْمْبَايْ، السيد جناح، من الوصول إلى اتّفاق

مشهور مع حزب المؤتمر على المستقبل الدستوري للبلد عُرِف باسم: (اتفاق لَكْهْنُو). وفي هذا الاتفاق وافق حزب المؤتمر للمرّة الوحيدة في تاريخه، بعد أن أَقْنَعَهُ (تيلاَكْ) الذي يبدو أنه تحوّل الآن من مُتَعَصِّب إلى رجل دولة، على أن يكون للمسلمين انتخابات مُنْفَصِلة. والاتّفاق في الأساس هو حَلٌّ وسط في قاعة الاجتماعات ثمَّ بين ذهْنيّات متوازنة عاقلة لأبناء الطبقات العُلْيا. ولقد أخذ منه البريطانيون بَعْضَ أجزائه منها موضوع الانتخابات المنفصلة عندما جاؤوا بدَفْعةٍ جديدةٍ من الإصلاحات في خِطّة (مونْتيغُو ـ تْشِلْمْزْفُوْرْدْ) التي أقرّها البرلمان في أواخر عام ١٩١٩م.

ولكن الأوضاع في الهند تغيّرت كثيراً أثناء تلك الفترة. فبالإضافة لِعَدَم الارتياح بعد الحرب والانزعاج من غلاءِ الأسعار، تَفَجَّر الغضَبُ عام ١٩١٨ بسبب تدابير حكوميّة شديدة لمنع التخريب اعْتُبِرَتْ مُثيرة، وهي ما سُمّيَ (بلائحة رُولاتْ).

وما أن عاد السيد (غانْدي) من جنوب إفريقيا بعد إثارته للهياج هناك، حتّى نَظّم إضراباً ليوم واحدٍ[1] ضد هذه التدابير، وقامت اضطرابات خفيفة بعد ذلك. والحقيقة أن قُوىً جديدةً تماماً دُفِعَتْ إلى ميدان السياسة الهندية على مستويات اجتماعية وعاطفية غير عادية: من ناحية الهندوس عن طريق هذا الزعيم الجديد... نوع من ديماغوجية دينية في الظاهر تختلف عن زعامة (تيرلاَكْ)، ويبدو أن الزعيم الجديد يَحْتَلُّ مكانه، وهو من الطبقات الدُنيا، ومن ناحية المسلمين عن طريق رجال بعيدين عن منطلق (جناح) ذي الفكر المتغرّب البارد، من علماء الدين ذوي الشعبية مثل (مولانا محمد) و(شوكَتْ علي)، و(أبي الكلام أزاد)؛ وبسبب موضوع تركيّا كانوا يتوقّدون حماساً إسْلاميا لا يجذُب باللسان والقلم رجال المجالس مثلما يجْذُب العامّة. وبحلول ربيع عام ١٩١٩ ازدادت القلاقل والتوترات إلى حدٍّ كبير في البنجاب، وفي العاشر من نيسان ـ أبريل ـ قُتِلَ في (أمْرِسْتارْ) أربعة أوروبيّين بأيدي الجماهير الثائرة، وبعد ثلاثة أيام حَلّتْ كارثة: فتحت القوات العسكريّة بقيادة الجنرال (دايْرْ) النار لمدّة طويلة على اجتماع عام ممنوع فقتلت على الأقل ٣٧٩ شخصاً وجرحت أكثر من ألف شخص. وأعلنت على إثْر ذلك الأحكام العرفية وتعرّض عامّة الناس لفترة من الزمن، لإهانات فظيعة.

---

(١) Hartals: هو إضراب عام ليوم واحد، له صلة بمشاعر ومعاني دينية لدى الهندوس يغلب فيهما الحزن ومظاهر الأسى.

وكان من الممكن للرعْب والاشْمئزاز الحاصلين من تلك الحادثة، أن يزولا تدريجيًّا لولا الجَدَل المتصلِّبُ بالتحامل العِرقي الذي أثير لِلدفاع عن موضوع إطلاق النار ليس فقط من قِبَلِ الشهود أمام لجْنةِ التحقيق في الهند بل في البرلمان البريطاني والصحافة ومع مُضِيِّ الوقت زاد شعور الحنْق والمَهانة لدى الرأي العام الهندي حتّى وجد في ربيع عام ١٩٢٠ فرصة مفاجئة للاندماج بعواطف ملتهبة في الجالية الأخرى (المسلمين)، بسبب الشروط الفظيعة في معاهدة (سيڤر) التي فُرِضَتْ على تركيّا مُتَضَمِّنَةً تقطيع أوصال الأناضول، مُعْتَبرين أن الحُلفاء نَكَثُوا بالعهود المقطوعة؛ وهذا ما جعل المسلمين المؤيدين للخلافة يشاركون ويؤيدون السيد غاندي؛ وأعلن الطرفان حَمْلة عدم التعاون ـ العصيان المدني ـ ضد ما أسماه غاندي: الحكومة الشيطانية.

ومع أن هذه الحملة سَبَّبَتْ إزعاجاً شديداً للسلطات ودامت حتّى عام ١٩٢٢، لم تستطعْ أن تَشُلَّ الإدارة كُلّياً كما كان الغَرَضُ المرجوّ، وجَرَتْ أوّل انتخابات بعد الإصلاحات، وفي عام ١٩٢١ بدأ الضعف يظهر على تلك الحملة؛ فترديد المسلمين المتحمّسين لموضوع الجهاد والحديث عن الرغبة في جلب الأفغان للهند أقلق الهندوس، وفي آب ـ أغسطس ـ سرعان ما تحوّل غليان المسلمين في (مالابار) ضدَّ الحكومة إلى حركةٍ ضدَّ الهندوس حدث فيها قتل واغْتِصاب وفرض المعتقد بالقوّة؛ وهذا ما قَصَمَ ظهر حملة عدم التعاون ـ العصيان المدني ـ وفي بداية السنة التالية، بعدما قَتَلَ مُتطوّعو حزب المؤتمر واحداً وعشرين شرطيًّا أكثرهم غير مُسلّحين في (شوري شوار)، أعلن السيد غاندي فجأة إنهاء حملة العصيان المدني وسْطَ اسْتنكار المتطرّفين من أتْباعه. أمّا المسلمون من جهتهم، فقد شعروا أن الأتراك أنفسهم سحبوا من تحت أقدامهم الأرضية التي وقفوا عليها في إثارتهم ودُهِشوا من تبنّي الأتراك للبعْثِ العلماني وانتصارهم على القوات اليونانية المهاجمة؛ وبعد عامين فقط ألغوا الخلافة.؟

ومنذ ذلك الحين لم تعُد أبداً العلاقات بين الهندوس والمسلمين إلى سابق عهدها من الصداقة؛ وتبع الحماس الشديد لحملة العصيان المدني في فترة ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢، التي بُنِيَتْ على أساس غير قوي خيْبَة كبيرة لدرجة أن أكثر الإنجازات المنطقية الهادئة التي تَمَّتْ في (لَكْهنو) عام ١٩١٦.... قد تَهَدَّمَتْ.

ويمكن ذِكْر السنوات ما بين ١٩٢٢ و١٩٣٧ باختصار، فَمِنْ وجهة نظرنا كانت فترة

انخفاض ـ بين قِمَّتين ـ، لقد بدأت باضطرابات مُرْبِكَةٍ بين الهندوس والمسلمين في المدن، كإثبات مؤسف للسخط المتبادل السائد؛ ومع أن هذه الفترة الزمنية شهدت عدّة أحداث يمكن اعتبارها هامّة، من زوايا أخرى، لم يَكُنْ لأيّ منها تأثير مصيريّ على مستقبل المسلمين؛ منها مثلاً زيارة لجنة سيمون للهند عام ١٩٢٨ والتي اقترنت بفَشَلِ المسلمين والهندوس في الوصول إلى أي بديل مقبول لدى الطرفين لما اقْتَرَحَتْهُ اللجنة؛ والموائد المستديرة في لندن، والعصيان المدني الذي دعا إليه غاندي مرتين في أوائل الثلاثينات وكان مؤثّراً إلا أنّ المسلمين بصورة عامّة بقوا بعيدين عنه، والمِنَحُ الشرفيّة للجاليات، وإقرار البرلمان البريطاني لآخر دفعة من الإصلاحات قبل الاستقلال (قانون حكومة الهند الصادر عام ١٩٣٥م).

كان هناك نقطة عامّة اهتم بها المسلمون، مع ذلك: وهي الطريقة التي انْتقلت بها هواجس المسلمين من الولايات إلى العاصمة، بالنسبة لموضوع الاستقلال الذاتي في الهند الموحّدة. وبينما كان همُّ المسلمين مُنْصبًّا في الغالب على كيفيّة عمل حكومة ثنائية في ظلِّ نظام (مونتيغو ـ شِلِمْزْفُورْدْ) في العشرينات من هذا القرن، كان همّهم الرئيس في الثلاثينات هو منع حكومة مركزيّة مُقْبلةٍ من اكتساب قوّة زائدة والحصول على سلطات واسعة تجعل المسلمين أبداً تحت رحمة غالبيّة هندوسية. وهناك نقطتان خاصّتان يجب تسجيلهما: في اجتماع الرابطة الإسلامية عام ١٩٣٠ في (الله آباد) اقْتُرِح رسمياً مسودّةُ خطّةٍ لما أصبح رسميًّا فيما بعد مشروع باكستان، لأوّل مرّةٍ في تاريخ الرابطة، وكان الاقتراح من شخصيّة معروفةٍ هي السيد محمد إقبال، في خطابه الرئاسي. وفي عام ١٩٣٣ في (كِمْبْرِدْجْ) أطلق شابٌّ مسلم هو السيد (شودْري رحمة إلهي)[1] تعبير (باكستان)، وهو إنجاز تاريخي، إلا أن هذا الشاب لم يحْظَ بتكريم من مواطنيه يوازي هذا الشرف.

وكانت قِمّة ١٩٣٧ ـ ١٩٤٠ حادثة تتعلّق بإقامة وزارة على مستوى المقاطعة بخاصّة في

---

(١) في كرّاسة عُنْوانها «الآن .... وإلا فلن يكون ذلك أبداً» وفسّر التعبير على النحو التالي: باكستان هي كلمة فارسية وأوردية مؤلفة من أحرف أُخِذَتْ من أوّل أسماء البلاد التي تُشكِلُ وطننا: البنجاب (P) وأفغانستان (أي الولايات الحدودية الشمالية الغربية) (A)، وكشمير (K) وإيران (I) والسند (S) وتورخارستان (T) و فغانِسْتان (A) وبالوشِسْتان (N) وتعني الكلمة أرض الباكَسْ PAKS الصافية النظيفة ـ روحيّا ـ.

المقاطعات المتّحدة[1]. وفي ذلك الوقت بالذات لم يسْتَوعب أحد الانعكاسات الهامّة لهذه الخطوة، وكانت مقاطعات أخرى مثل (بومْبايْ) مشمولة بهذه النشاطات ويحتاج تَسَلْسُلُ تلك الأحداث إلى إعادة عَرْضِه: في عام ١٩٣٤ عاد السيد محمد علي جناح إلى الهند بعد فترة من ممارسة مهنة المحاماة في لندن، ووجد نفسه بعد قليل زعيماً للرابطة الإسلامية؛ ومثل حزب الأحرار الهندي، بعكس حزب المؤتمر، لم تُحاول الرابطة حتّى ذلك الوقت الاتصال الواسع بالجماهير وبقيت إلى حدٍّ ما جمعية للنقاش بين شخصيّات من الطبقة العليا تهتَمُّ بنمطٍ خاصٍ من السياسات. وبعد ثلاث سنوات، ولم يكن للسيد جناح الوقت الكافي بعد لتحسين مستوى الرابطة التنظيمي، جَرَتْ انتخابات تشريعيّة في ظل قانون جديد لحكومة الهند، واختار جناح برنامجاً معتدلاً يتناسب مع سِجِلّه الماضي وركَّز على مبادئ قومية مشابهةٍ لما أصبح في النهاية مبادئ حزب المؤتمر، ومدح اتفاقية (لُكْهْنُو) لعام ١٩١٦.

وفي بعض الولايات، ومنها (أُوتار بْراديش) وجد مُرشَّحُو الرابطة الإسلامية أنفسهم يقومون بالدعاية الانتخابية مع مُرَشَّحِي حزب المؤتمر سويّةً من على مِنْبَرٍ واحد، متفاهمين على أن وزارة ائتلافية ستُشَكَّل بعد الانتخابات. وفي الواقع اعتقد مُرشحو الرابطة في (أوتار بْراديش)، كما يبدو، أنّهم وُعِدُوا بوزارتين اثنتين.

ونال حزب المؤتمر الذي أصبح الآن قوّة سياسيّة فاعلة، في الانتخابات أكثر ممّا توقّع له مؤيدوه؛ وأظهرت النتائج أنه ربّما استطاع منفرداً تأليف وزارة في سبع ولاياتٍ من أصل إحدى عشرة. أما الرابطة ولأنّها لم تكن ناميةً تماماً، فقد نالت شيئاً مقبولاً. لذلك قرّرت زعامة حزب المؤتمر في (أوتار بْرادِيشْ) أن على نواب الرابطة أن يقبلوا شروطاً لا يقبلها أيّ حزْب يحْترم نفسه إذا أرادوا دخول الوزارة، وهي: أن عليهم الانضمام إلى حزب المؤتمر أوّلاً، وحَلّ اللجان البرلمانية المحليّة للرابطة بصورةٍ نهائية. وكان تأثير تلك الشروط على كثير من المسؤولين في سائر أنحاء الهند صاعقاً. وما كان يتوجَّسُ منه المسلمون قبْلاً، ظهر فجأةً بوضوحٍ بغيض. وكان حزب المؤتمر،الذي يسيطر عليه الهندوس مُصَمِّماً على احتواء وامتِصاصِ المسلمين في النهاية. فنمط حكم الأغلبية في شبه القارّة الهندية الموحّدة يَعني فقط شيئاً واحداً هو أن الجالية الكبيرة ستَبْتَلِعُ الجالية الصغيرة

(١) وسُمّيت بعد ذلك (أُوتاربْراديشْ).

كما أشار السيد أحمد خان إلى ذلك منذ زمن بعيد؛ وسيرى المسلمون أنفسهم في النهاية طبقةً من الطبقات السُفْلى للمنبوذين ذائبين في هُلاميّةٍ وَثَنِيّةٍ داكنة. وهكذا تشكَّلتْ آراء المسلمين وكان في سوابق النظام البرلماني البريطاني أمْثلةٌ جاهزة تدعم نوع القرار الذي اتّخذه حزب المؤتمر، بعد نجاحه الانتخابي الكبير، ولم يَهْتَمّ الأخير أبداً لذلك مفترضاً أنه لم يَعِدْ في الواقع المسلمين أيَّ وعود قاطعة لذلك لم يُخْلِفْ، في نظره، أيَّ وَعْد. ولم تكن بريطانيا كالهند فالشروط مختلفة إذ أن المجتمع موحّد في بريطانيا وليس به مجموعات عرقيّة وعناصر متعدّدة. والذي زاد من حدة المرارة لدى عامة المسلمين هو أن يعلن قرار حزب المؤتمر على لسان أحد المسلمين، (أبي الكلام أزاد) أحد المَحْمِيِّين من حزب المؤتمر، فلقد عُيّن آنذاك رئيساً له. وكان هناك سؤال مُلِحٌّ يدور في ذِهْن كلِّ عضوٍ من أعضاء الرابطة الإسلامية: ماذا كان في قرارة نفس (أبي الكلام أزاد) بالذات عندما وقّع على ذلك البيان؟[١].

ولم يَسْعَ حزب المؤتمر بعد تأليف الوزارات إلى تخفيف الأمور؛ ولم يبذُل أيَّ جهد ليظهر لمؤيدي الرابطة من عامّة المسلمين أنهم كانوا على خطأ في تفكيرهم. بل على العكس عاد السيد نِهْرو نفسه بسرعة إلى (أوتاربراديش)... وهو من أبنائها، ليقود حملة اتصالات جماهيريّة باسم حزْبه بين فقراء المسلمين ليُحوِّلَ ولاءهم لإخوانهم المسلمين «الإقطاعيين» على حدِّ تعبيره، الذين كانوا يقودون زعامة الرابطة إلى حزب المؤتمر. وكان وزراء الولايات في (أوتاربراديش) وغيرها يمارسون نشاطاتهم اليومية في جوّ واضح من (الرام راج)[٢] ـ أي مملكة يَحْكمها كبير الآلهة الهندوسي ـ والتي ينفُرُ منها غير الهندوس. وبدأت أنواع مختلفة من الضغوط والمضايقات للمسلمين، ففي المدرسة طُلب من التلاميذ عبادة صورة غانْدي حَسْبَ الطقوس الهندوسية، وإنشادْ نشيد (بانْدي ماتَرامْ) وهو نشيد قومي من القصَّة البغيضة لـ (بانْكيم تْشَاتَرْجِي)؛ وانتشرت الدعوة لعَدَم أكْل لحم البقر ولعدم الحديث أو الكتابة باللغة الأوردية، وأُعْطِيت أفضل المناصب للهندوس، وانحاز البوليس ـ الشرطة ـ للهندوس في كل اضطراب أو اصطدام... وهكذا. ويمكن الاطّلاع على تفاصيل تلك الحقبة مِمّا سُمِّيَ تقرير (بِرْبُورْ) الذي أصدرَتْه عام ١٩٣٨ لجنة عموم الهند التي شكّلتها

---

(١) نُقِلَ هذا الكلام من كتاب كُوبْلانْد صفحة ٢٩٤.

(٢) تعبير مُفضّل لدى السيد غاندي. ويعني مملكة يسيطر عليهما كبير آلهات الهندوس.

الرابطة للتحقيق في شكاوى المسلمين في الولايات التي حكمها حزب المؤتمر.

وسواء كان هناك بعض المبالغة في الشكوى أو عدم صحّة بعضها.. أمْ لا فالأمر ليس مهمًّا. المهم أن أكثر المسلمين، في سائر أنحاء شبة القارّة كانوا مقتنعين بذلك. ويُجْمِعُ الكُتَّاب الآن عمليًّا على الأهميّة البالغة لفترة تأليف وزارة (أوتاربْراديش) وتأثيرها على العلاقات بين المسلمين والهندوس. وهذه القمّة تُشكِّلُ رابع القِمم،... ومن ثم اكتسب الدفع نحو تقسيم الهند تسارُعَه المُذْهِل.

إعادة السيد جناح لتنظيم الرابطة وتحويلها السريع من جمعية خطابيّة للشيوخ من عليّة القوم إلى حركة جماهيريّة جرى بمهارة كبيرة. ولكن بعض النشاطات كانت عفويّة آنيّة تطوُّعيّة وجاءت على موجةٍ شعبيّةٍ عارمة من عواطف المسلمين. ويشهد (سْبِيرْ) في آخر كُتُبِهِ بتسارع الأحداث الملحوظ واصفاً الأجواء الجديدة التي استقبلته عند عودته لِدِلْهي عام ١٩٣٩ بعد غياب عامين فقط؛... باكستان كانت قاب قوسين أو أدنى.

بعد قليل من إعلان الحرب العالمية الثانية، واحْتجاجاً على الطريقة التي اشْتركت بها الهند رسميًّا بقرار من اللورد (لِنْلِثْغُو)، استقال وزراءُ حزب المؤتمر من حكومات الولايات. ولقد تأسّف لذلك، بِصِدْقٍ، بعض المسؤولين البريطانيين. فلقد نما باطّراد مع الأيام ما لم يكن متوقّعاً من تعامل سعيدٍ بين حكومات الولايات وهؤلاء المسؤولين البريطانيين؛ إلاّ أن الرابطة الإسلامية أظْهرَتْ اغْتِباطها بهذه الاستقالة وأعلنت عن «يوم الحريّة» للابْتهاج بهذا الحدث، وكانت استجابة الناس واسعة النِطاق. وسارت الأمور بتسارع أكبر داخل تنْظيم الرابطة وعُيِّنَتْ لجنةٌ في الربيع السابق لم يشعُرْ المراقبون في ذلك الوقت بمَدَى أهميّتها، لتقديم تقْرير عن مسودةٍ للخُطط التي وصفها الأخصائيون بالتطوّرات الدستورية في الهند والبلاد الأخرى، وكان على رأسها السيد محمد علي جناح وسكرتيرها السيد لياقة علي خان. ويبدو أن تقرير اللجنة قد نوقش بِدِقَّةٍ في الخريف والشتاء ويحوي كتاب خالد بن سعيد تفاصيل المناقشات. وفي ٢٣ آذار ـ مارس ـ ١٩٤٠ عُرض في (لاهور) اقتراح إقامة[1] باكستان وتقْسيم شبه القارّة وصُوّت عليه.

أمّا بقيّة القصّة فيمكن روايتها بسرعة. فحزب المؤتمر الذي تعامى حتى ذلك الوقت بسبب عَجْرَفَتِهِ عن رؤية التغيير الحاسم في مشاعر المسلمين، اتّخذ خطوتين سخيفتين بعد

(١) في الواقع لم يُستَعْمل في القرار كلمة «باكستان».

سحب وزرائه من حكومات سبع ولايات في تشرين أول ـ أكتوبر ـ عام ١٩٣٩ وهكذا تركَ الساحة السياسية مفتوحة تماماً طوال فترة الحرب العالمية الثانية تقريباً فاستغلّ السيد جناح هذه الفرصة استغلالاً كاملاً: الأولى هي إعلان العِصْيان المدني عام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ وهذا ما أدّى لسجن العديد من زعماء حزب المؤتمر لِمُدَدٍ قصيرة، الثانية ـ وهي الأكثر خطورة ـ: التمرّد المكشوف في آب ـ أغسطس ـ بعد بَعْثَةِ (كْرِبْسْ) المُجْهَضَة في آذار ـ مارس عام ١٩٤٢.

وتبع ذلك ثلاث سنوات سمّاها المؤيدون لحزب المؤتمر (العُقْدة ـ الورطة)، وكانت آخر الانْحِدارات في هذا الفصل. وأثناء هذه الفترة ـ في صيف عام ١٩٤٤جرت محادثات قُرْب (بُومْبايْ) بين السيد جناح والسيد غاندي الذي أُطْلِق سراحه قبل أن يُنْهِي عقوبة سِجْنِه بسبب اعتِلال صحّته، آملين أن يجدا طريقاً للاتفاق وكان الوسيط وهو راجا غوبالاشاري، الوحيد بين برلمانيّي زمانه ذا حكمة كافية استوعب خلالها ما كان يجري في الجالية المسلمة وعرف لماذا، فدعا حزبه ليقوم بعملٍ حَسَنِ النيّة تجاه المسلمين، إلا أن الدعوة ذَهَبَتْ أَدْراج الرياح.

وعندما أطلق سراح بقية اللجنة التنفيذية لحزب المؤتمر في حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤٥، كان السيد جناح قد كسب ولاءَ المُسلمين بحيث اسْتطاع فرْضَ إرادته على المؤتمر الذي عقده اللورد (وِيفِلْ) في ذلك الشهْر في (سِمْلا) لمناقشة مستقبل البلد. ومقابل الادّعاء القديم المغرور لحزب المؤتمر إنه الوحيد الذي يُمثّل الشعب الهندي، عرض جناح ادّعاءه المعارض مؤكداً أن الرابطة وحدها هي التي تُمثِّل المسلمين ولم يتزحزح عن هذا الموقف، وتحَطَّمَ على صخرة رَفْضِه اقتراح بتسمية مُرَشح حزب المؤتمر (أبي الكلام أزاد) أو عُضْو حزب البنجاب المُتحد السِرْ (خُضْر حياة تيوانا) للدخول كعُضْوٍ في حكومة مركزيّةٍ انتقالية وهكذا انهار ذلك المؤتمر. وأثناء الانتخابات التي جرت في الشتاء المقبل ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ أثبت جناح بصورة قاطعةٍ صحّة ادّعائه في انتصار الرابطة الساحق بين الجالية المسلمة، كما نال حزب المؤتمر عام ١٩٣٧ من الهندوس. كان الواقع وجود حزبين لا حزبٌ واحد في شبه القارّة الهندية وكانا يسيران بسرعة نحو... الصدام.